المجموع القيّم

حسين

من كلام شيخ الإسلام وبن القيّم
رحمهما اللّه ورضي عنهما بمنه وكرمه

جمعه الفقير إلى عفو ربه
محمّد السّليمان العليّط
عفى الله عنه وعن والديه وعن جميع المسلمين

(طبع على نفقة بعض المحسنين)
جزاهم الله خيراً وغفر الله لهم ولوالديهم ولجميع المسلمين

وقد أذن مؤلفه لمن أراد طبعه أن يطبعه
وجزاه الله أحسن الجزاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ،

فهذه نبذة يسيرة في ذكر شيء من ترجمة شيخ الإسلام رحمه الله ... آمين .

هو الشيخ الإمام الرباني إمام الأئمة حافظ السنة وقامع البدعة :

هو الشيخ أبو العباس أحمد إبن عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن محمد بن عبدالله إبن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله إبن تيمية رحمه الله .

ولد بحران يوم الأثنين ثاني عشر من ربيع الأول سنة ستمائة وإحدى وستين هجرية .

وقد نشأ الشيخ رحمه الله في حجور العلماء راتعاً في رياض التفقه متلاهياً عن الدنيا ومتقللاً منها وكان يحضر المدارس في حفره ويناظر ويُفحم الكبار وأفتى وله تسع عشرة سنة أو أقل وكان غاية في الذكاء .

وإنبهر أهلْ دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وتضلعه من علم الحديث وحفظه حتى قالوا : كل حديث لا يعرفه شيخ الإسلام فليس بحديث .

وصنف الشيخ رحمه الله الكثير من الكتب وهى أشهر من أن تذكر وأعرف من أن تنكر .

قال الذهبي : إن مصنفات الشيخ أربعة آلاف .

وذكر عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله : إنه قيل إن مصنفات الشيخ أكثر من ستة آلاف مجلد رحمه الله .

وقال إبن القيم رحمه الله :

واقراء كتاب العقل والنقل الذي   ما في الوجـــود له نظير ثاني
وكذاك منهاج له في رد هـــ   قول الروافض شيعة الشيطان
وكذاك أهل الإعتزال فإنـــه   ارداهم في حفرة الجبـــان
وكذاك التأسيس أصبح نقضه   إعجوبة للعـــالم الربـــان
وكذاك اجوبة له مصـــرية   في ست أسفار كتبن سمان
وكذا جواب للنصارى فيه ما   يشفى الصـــدور وإنه سفران
وكذاك شرح عقيدة للأصبها   ني شارح المحصول شرح بيان
فيها النبوات التي إثباتها   في غـــاية التقرير والتبيان
وكذا حدوث العالم العلوي   والسفلي فيه فى أتم بيـــان
وكذا قواعد الأستقامة إنهـــا   سفران فيما بيننـــا ضخمـــان
وكذا توحيد الفلاسفة الألىٰ   توحيدهم هو غـــاية الكفران
وكذا تسعينية فيهـــا لـــه :   رد على من قال بالنفســـان
وكذا قواعده الكبار وإنّهـــا   أوفى من المـــائتين في الحسبان
وكذا رســـائلهُ إلى البلدان   والأطراف والأصحاب والأخوان
وكذا فتاواه فأخبرني الـــذي   أضحى عليها دائم الطوفان
بلغ الذي ألفاه منها عدة الأيّـــ   ـــام من شهر بلا نقصـــان
سفر يقابل كل يومٍ والـــذي   قد فاتني منها بلا حسبـــان

وقال الذهبي :

كان الشيخ إماماً متبحراً في علوم الديانة صحيح الذهن ، سريع الادراك ، سيال الفهم ، كثير المحاسن موصوف بفرط الشجاعة والكرم فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل به .

قال إبن رجب :

وقد عرض عليه قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل شيئاً من ذلك ، قرأت ذلك بخطه .

قال الذهبي :

ويكتب في اليوم والليلة في التفسير أو من الفقه أو الأصول أو الرد على الفلاسفة والأوائل نحوا من أربعة كراريس أو أزيد .

وقال إبن رجب رحمه الله :

وقد كتب الشيخ « الحموية » في قعدة واحدة وهى أزيد من أربعة كراريس .

وبقى مدة في القلعة يَكتب العلم ويصنفه ويرسل إلى أصحابه الرسائل ويذكر ما فتح الله عليه في العلوم العظيمة .

وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

وقال : المحبوس من حبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه .

« ذكر وفاته رحمه الله »

وكانت وفاته سحرا ليلة الأثنين عشرة ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة .

وتسامع الناس بذلك وبعضهم أعلم به في منامه .

وكان رحمه الله يتلو القرآن في مرضه ولما بلغ قوله تعالى « إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر » قبض رحمه الله ورضى عنه وجمعنا به في مقعد صدق عند مليك مقتدر . اللهم صلي على محمد وآله وصحبه .

وغسله جماعة من العلماء والصالحين كالمزني وغيره .

وكان يوماً موته يوم مشهوداً لم يعهد في دمشق مثله وصرخ صارخ وقال : هكذا تكون جنائز أئمة أهل السنة فبكا الناس بكاءً شديداً .

ودفن في وقت العصر أو قبلها بقليل وختم له ختمات كثيرة ورأيت له منامات صالحة كثيرة رحمه الله .

وأخبر بعضُ المسافرين أنه نودى بأقصى الصين للصلاة عليه يوم جمعة « صلوا على ترجمان القرآن » .

ومما رثي به الشيخ رحمه الله ، ما قاله الخياط :

تنكّرت الدنيا على كل عارف   رأى منك مأهول المنازل بلْقَعاً
فيا أحمد المحمود قد كنت للهدى   مناراً وللشرع الحَنيفي مشرعاً
لقد كنت عن شر بطيئاً ووانياً   وفي طلب الخيرات عجلان مسرعاً

وقال إبن الخضر يرثي الشيخ :

لقد عَذبوا قلبي بنار المحبة   وذاب فؤادي من فراق الأحبة
فقدتُ إماماً كان بالعلم عاملًا   وكان حقيقاً قامعاً كل بدعة
شجاع همام بارع في صفاته   يروم مراماً في المراقي العليّة
تزهد في كلّ الوجود وغيره   يدور على الدنيا بنفس دنية
ويلقى لمن يلقاه بالبشر والرضا   بأوصافه الحسنى ونفس زكية
ويدعو لمن قد نال من ثلم عرضه   ولم ينتقم ممن أتى بالأذيَّة
يجاهد في الله الكريم بجهده   بصدق وإخلاص وعزم ونية
ويأمر بالمعروف حباً لربه   وينهى عن الفحشاء نهياً بهمة
تقي نقي طاهر الذيل مذ نشأ   كريم السَجايا ذو صفات حميدة
ألا يا تقي الدين يافرد عصره   بروقكَ قد لاحت كشمس مضيئة
ظهرتَ بأنواع العلوم وجنسها   وسارت بها الركبان في كل بلدة
وأوضحت إشكالًا بينت مبهماً   وأبديْتَ أسراراً بنفس عليمة
ظهرت بإحسانٍ وحسن سماحة   ودين وتوحيد . وكل فضيلة
وكنت حمولًا للنوائب كلها   صبوراً على الأقدارفي دار غربة
لقد عشت محبوباً ومت مكرماً   عليك من الرحمان أزكى تحية
وبعد فلله المحامدُ كلها   على ما أرانا من وضوح المحجة

وهذا آخر ما تيسر جمعه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

ونسأل الله العظيم الكبير السميع البصير الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ذا الجلال والأكرام الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد القوي العزيز أن ينصر دينَه وشرعه وأن يعيد للمسلمين عزهم ومجدهم وينصرهم على عدوهم إن الله على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على عبده ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه وأزواجه أجمعين إلى يوم الدين .

(ذكر شيءٍ من ترجمة شمس الدين إبن القيم)

هو العلامة شمس الدين أبو عبدِ الله محمد بن بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي المفسر الشهير بإبن قيم الجوزية .

قال إبن رجب ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة ولازم شيخ **الإسلام** إبن تيمية رحمهما الله ... آمين .

وسمع أيضاً من شهاب الدين النابلسي والقاضي تقي الدين سليمان وفاطمة بنت جوهر وعيسى المطعم وجماعة .

قال الذهبي :

عني بالحديث ومتونه وكان يشتغل بالفقه ، وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل ، وحبس مع الشيخ في المرة الأخيرة بالقلعة منفرداً عنه .

وقال إبن رجب وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى وتأله ولهج بالذكر شغف بالمحبة والإنابه والأستغفار والأفتقار إلى الله والانكسار له **الإنطراح** بين يديه على عتبة العبودية لم أشاهد مثله في ذلك رحمه الله .

وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه إلى أن مات فانتفعوا به ، وقال القاضي برهان الدين : ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه . وصنف تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلوم .

توفي رحمه الله : وقت عشاء الأخرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وصلى عليه بالجامع بعد الظهر ثم بجامع جراح وشيعه خلق كثير ورئيت له منامات كثيرة حسنة رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس الأعلى منزله ومثواه .

فمنها أنه رأى الشيخ في النوم وسأله عن حاله ومنزلته فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر ، ثم قال له وأنت كدت تلحق بنا ولكن أنت الآن في طبقة إبن خزيمة رحمهم الله تعالى ورضى عنهم وعّمنا معهم برحمته .

وقال رحمه الله تعالى لما ذكر صفة الجنة وما فيها من أصناف النعيم والحبره تا لله لقد نودي عليها في سوق الكساد فما قلب ولا إستام إلا أفراد من العباد فواعجباً لها كيف نام طالبها وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ، وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها ، وكيف قرت دونها أعين المشتاقين ، وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين ، وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ، وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين .

(شعر في وصف الجنَّـــة)

وما ذاك إلا غيرة أن ينالهـــا　　سوى كفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكل كريهـــة　　وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلم
فالله ما في حشوها من مسرةٍ　　وأصناف لـــذات بها يُتنعَّـــم
ولله برد العيش بين خيامها　　وروضاتها الثغر في الروض يبسم

ولله واديها الذي هو موعد المـ   زيد لوفد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صبابة   محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أفرح المحبين عِند ما   يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة   فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة   آمن بعدها يسلو المحب المتيم
ولله كم من خيرة إن تبسمت   أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت   ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطب إذا انثنت   ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها   فلم يبقى إلا وصلها لك مرهم
ولا سيما في لثمها عند ضمها   وقد صار منها تحت جيدك معصم
يراها إذا أبدت له محاسن وجهها   يلذ به قبل الوصال وينعم
تفكه فيها العين عند إجتلائها   فواكه شتى طلعها ليس يعدم
عناقيد من كرم وتفاح جنة   ورمان أغصان بها القلب مغرم
وللورد ما قد ألبسته خدودها   وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تقسم منها الحسن في جمع واحد   فيا عجباً من واحد يتقسم
لها فرق شتى من الحسن أجمعت   بجملتها أن السلوَّ محرَّم
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها   تولى على أعقابه الجيش يهزم
فيا خطب الحسناء إن كنت رغاباً   فهذا زمان المهر فهو المقدَّم
ولما جرى ماء الشباب بغصنها   تيقن حقاً أنه ليس يهرم
وكن مبغضاً للخائنات لحبها   فتحظى بها من دونهن وتنعم
وكن أيماً ممن سواها فإنها   لمثلك في جنات عدن تأيم
وصم يومك الأدنى لعلك في غداً   تفوز بعيد الفطر والناس صوم

وأقدمْ ولا تقنع بعيش منغص   فما فاز باللذات مَن ليس يقدم
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها   ولم يك فيها منزل لك يُعلم
فحَّي على جنات عدنٍ فإنها   منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى   نعود إلى أوطاننا ونسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى   وشطت به أوطانه فهو مغرم
فأي إغتراب فوق غربتنا التى   لها أضحت الأعداء فينا تحكم
وحبيَّ على السوق الذي فيه يلتقي الـ   ـمحبون ذاك السوق للقوم يعلم
فما شئت خذ منه بلا ثمن له   فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
وحيَّ على يوم المزيد الذي به   زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحيَّ على واد هنالك أفيح   وتربته من أذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة   ومن خالص العقيان لا يتفصم
وكثبان مسك قد جُعلن مقاعدا   لمن دون أصحاب المنابر يُعلم
فبيناهموا في عيشهم وسرورهم   وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم
إذا همو بنور ساطع أشرقت له   بأقطارها الجنات لا يتوهم
تجلى لهم ربُ السماوات جهرة   فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم   بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلوني ما اشتهيتم فكل ما   تريدون عندي إنني أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضى   فأنت الذي تولي الجميل وترحم
فيعطيهمُ هذا ويشهد جمعهم   عليه تعالى الله فالله أكرَمُ
فيا بائعاً هذا ببخس معجل   كأنك لا تدري بلى سوف تعلم
فإن كُنتَ لا تدري فتلك مصيبة   وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظم

فهذه آخر ما تيسر جمعه من ترجمة هذا العالم الجليل رحمه الله ورضى عنه .. آمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد .. فإنه لما كان كلام شيخ الاسلام وتلميذه إبن القيم في تقرير الدين والذب عنه وجهاد أهل البدع في الغاية القصوى والذروة العليا سنح لي أن أجمع شيئاً من فوائد كل منهما وغرر فوائدهما مبتغياً بذلك وجه الله تعالى والزلفى لديه وهو القريب المجيب ، وسميته المجموع القيم من كلام شيخ الاسلام وبن القيم والله المسؤل المرجو أن ينفع به من سمعه أو قرئه أو نظر فيه إنه على كل شيءٍ قدير وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى :

الحمد لله المستوجب لصفات المدح والكمال المستحق للحمد على كل حال لا يحصي أحد ثناءاً عليه بل هو كل أثنى على نفسه بأكمل الثناء وأحسن المقال ، فهو المنعم على العباد بالخلق وبإرسال الرسل إليهم وبهداية المؤمنين منهم لصالح الأعمال ، وهو المتفضل عليهم بالعفو عنهم وبهدايتهم وبالثواب الدائم بلا إنقطاعٍ ولا زوال له الحمد في الأولى والآخرة حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه متصلاً بلا إنفصال .

(فصل)

وقال رحمه الله :

وأما النية التي هى إخلاص الدين لله فقد تكلم الناس في حدها وحد الأخلاص كقول بعضهم المخلص هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل : ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل : الذر من عمله وأمثال ذلك من كلامهم الحسن .

(فصل)

وقال إبراهيم بن أحمد الفياني خادم الشيخ :

سمعت الشيخ رحمه الله يحكي غير مرّة في مجالسه يقول : زرتُ يوماً المارستان المنصوري فجاء إليَّ أناس فقالوا لي : تصدّق وزر المارستان العتيق فرحت معهم أزوره فقالوا : ألا تزور قبور الخلفاء يعنون بني عبيد فرحت معهم إلى قبورهم فوجدت قبورهم إلى القطب الشمالي فتكلم الشيخ رحمه الله عليهم وعلى مذاهبهم ، فقال الحاضرون : نحن نعتقد أن هؤلاء قوم صالحون لأنّ إذا مغلت عندنا الخيل نجيء بها إلى قبور هؤلاء فتبرأ فلولاء أنهم صالحون ما برأت الدواب من النغل عند قبورهم ، فقلت : هذه حجة على ما أقوله فيهم فإن المغل من برد يحصل للدواب فإذا جيء بها إلى قبور اليهود والنصارى في الشام وإلى قبور المنافقين كالقرامطة والأسماعيلية و النصيريه فإن الدواب إذا سمعت أصوات المعذبين في قبورهم تفزع فيحصل لها حرارة تذهب بالمغل الذي حصل لها وكان النبي ﷺ يوماً راكباً على بغلته فحادت حتى كادت تلقيه عن ظهرها فقالوا ما شأنها يا رسول الله فقال : إنها سمعت أصوات يهود تعذب في قبورها وقال إنهم ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائم .

(فصـــــل)

وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى - أيضا :

يقول داوود عليه السلام في مناجات ربه « وليفرح المتوكلُون عليك إلى الأبد ويبتهجون وتحلُ فيهم ويفتخرون » .

وهذا يراد به أحوال أهل الأيمان به والمعرفة له وأهل محبته وذكره وعَبادته ونوره وهداه .

وكذلك قوله في الحديث « عبدي مُرضت فلمْ تعدني فَيقولُ العبدُ : يا ربي كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمتَ أن عبدي فلان مُرض فلو عدته لوجدتني عنده » فقال « لوجدتني عنده ولمْ يقلْ لوجدتني إيَّاه » وهو عنده أي في قلبه والذي في قلبه المثال العلمي .

وقال تعالى « عبدي جعتُ فلم تطعمني فيَقولُ وكيف أُطعمك وأنتَ رب العالمين فيقول أما علمتَ أنّ عبدي فلان جاع فلو أطعمتَه لوجدت ذلك عندي » .

ولم يقلْ لوجدتني قد أكلته هـ في الجواب الصحيح .

(وقال إبن القيم رحمه الله)

وأما السلام على القبور وخطابُهم فلا يدلّ على أنّ أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أفنية القبور فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليّين مع الرفيق الأعلى ﷺ يسلّم عليه عند قبره ويرد سلام المسلّم عليه وقد وافق إبنُ عمر رضى الله عنه أنّ أرواح الشهداء في الجنة ويسلّم عليهم عند قبورهم كما يسلّم على غيرهم كما علّمنا ﷺ أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلّمون على شُهداء أحد وقد ثبتَ أنّ أرواحهم في الجنة تسرح

حيثُ شاءت ولا يضيق عطنُك عن كون الأرواح في الملأ الأعلى تسرح حيثُ شاءت وتسمع سلام المسلّم عليها عند قبرها وتدنوا حتى تردَ عليه السلام وللروح شأنُ آخر غير شأن البدن وهذا جبريل عليه السلام رآه النبي ﷺ وله ستمائة جناح منها جناحَان قد سدَّ بِهما ما بين المشرق والمغرب وكان من النبي ﷺ حتى وضعَ يديْه وركبتيه على فخذيه وما أظُنّكَ يتّسع عطنك أنّه كان حينئذٍ في الملأ الأعلى فوقَ السماوات حيثُ هو مستقرّه وقد دنى من النبي ﷺ هذا الدنو فإنّ التّصديق بهذا له قلوب خُلقَتْ وأُهْلتْ لمعرفته ومن لم يتّسع عطنُه لهذا فهو أضيق أن يتّسع للايمان بالنّزول الآلهي إلى سماء الدنيا كلّ ليْلة وهو فوق سماواته على عَرشه هـ من الرسائل ج ١ .

(وقال إبن القيم أيضا رحمه الله)

وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة : سمعت إبن أبي الدنيا يقول إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره .

لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد القطان حدثنا عبد الله بن بكر السهمي عن أبيه أن قوماً كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر فيقول ما تدرون ما تقول هؤلاء ، فيقولون : لا ، فيقول : تقول كذا وكذا فيحيلنا على شيءٍ لا ندري أصادق فيه أم كاذب إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخله لها فجعلت تحنو عنقها إليها وتثفو فقال : أتدرون ما تقول هذه الشاة قلنا : لا قال : تقول لسخله إلحقي لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان ، قال : فانتهينا إلى الراعي فقلنا له : ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا . قال : نعم وَلدت سخلة عام أول فأكله الذئب

بهذا المكان ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على جمل لها وهو يرغو ويحنو عنقه إليها فقال : أتدرون ما يقول هذا البعير ، قلنا : لا . قال : إنه يلعن راكبته ويزعم أنّها رحّلته على مخيط وهو في سنامه قال : فلما أتيناهم قلنا : يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ويزعم أنها رحّلته على مخيط وأنه في سنامه قال : فأنا خوا البعير وحطّوا عنه فإذا هو كما قال .

فهذه الشاة قد حذّرت سخلتها من الذئب مرةً فحذرت وقد حذر الله سبحانه وتعالى إبنَ آدم من ذئبه مرةً بعد مرة وهو يأبى إلا أن يستجيبَ له إذا دعاه ويبيت معه ويصبح ..

قال تعالى « وقَال الشّيطانُ لمّا قُضى الأمُر إنّ الله وعَدكُم وعْد الحق ووعدُتكُمْ فَأخلَفْتكُمْ وما كانَ لي عليْكُم مِنْ سُلْطان إلا دَعْوْتكُمْ فاستجبتم لي فَلاَ تَلُومُوني وَلُومُوْا أنْفُسَكُمْ مَا أنَا بِمصْرخكُمْ وما أنْتُم بِمصْرخيَّ إنّي كفرتُ بما أشْرَكتُموني من قَبل إنّ الظّالمين لَهُم عذَبٌ أليمٌ » .

(فصــــــل)

وقال شيخ الاسلام رحمه الله :

وقال دانيال النبيّ سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لي ما يكون من بني إسرائيل وهل يتوب عليهم ويرد عليهم ملكهم ويبعث فيهم الأنبياء أو يجعل ذلك في غيرهم فظهر لي الملك بصورة شاب حسن الوجه وقال : السلام عليك يا دانيال إن الله يقول إن بني إسرائيل أغضبوني وتمردوا علي وعبدوا من دوني إلٰها آخر وصاروا بعد العلم إلى الجهل ، وبعد الصدق إلى الكذب فسلطت عليهم بختنصر فسبى ذراريهم وهدم مساجدهم وكذلك يفعل من بعده بهم حتى أبعث نبياً من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر وأرسلتُ إليها ملكي فبشرهَا وأوحى إلى ذلك النبي وأعلّمه الأسماءَ وأزيّنه

بالتقوى وأجعل البِّر شعاره والتَقوى ضميرَه والصدقَ قوله الوفاء طبيعته والقصد سريَرته والرشدَ سنّته أخصه بكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب وناسخ بعض ما فيها أُسري به إليّ وأرقِّيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه وأُسلِّم عليه وأوحي إليه ثمّ أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة حافظا لما أُستُودع صادق بمافيما أمرولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق رؤوف بمن والاه رحيم بمن آمن به خشن على مَن عاداه فيدعوا قومَه إلى توحيدي وعبادتي فيكذبونه ويؤذونه ... الخ .

(من الجواب الصحيح)

(فصـــــل)

وقال الشيخ أيضا رحمه الله :

ولابد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكليّة بحول الله وقوته .

فنقول إعلم إن محركات القلوب إلى الله عز وجل المحبة والخوف والرجاء أقواها المحبة وهى مقصوده تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال الله تعالى « أَلا إِنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فالخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه .

والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذاأصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدالله لا لغيره..

فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه فأي شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيئان :

أحدهما : كثرة ذكر المحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير قال تعالى « يأيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكراً كثير » الآية .

والثاني : مطالعة آلائه ونعمه قال الله تعالى « فذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » وقال تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » وقال تعالى « وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة » وقال تعالى « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

فإذاذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض ومافيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الأيمان وغيره .

فلابد أن يثير ذلك عنده باعثاً وكذلك الخوف تحركها آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه ، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء .

والكلام في التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الأستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم إنتهى من المجلد الأول «فتاوي»

وقال أيضا رحمه الله :

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها أنه سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته وأن كلماته لا نهاية لها وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى وإنما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب سبحانه لا يماثل أصوات العباد كما إن

علمه لا يماثل علمهم وقدرته لا تماثل قدرتهم وأنه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ولا في ذاته شيءُ من مخلوقاته هـ من الفتاوي الجزء الأول .

وقال إبن القيم رحمه الله فائدة :

القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا ومن كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله .

ولا يتم له سلامة مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، ومن شهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والأخلاص ، وهذه الخمسة حجاب عن الله تعالى . هـ من الجواب الكافي .

وقال أيضا – لأسباب شرح الصدر أمور :

قوة التوحيد والهدى والنور الذي يقذفه الله بقلب العبد ، والعلوم النافعة والإنابه إلى الله تعالى ، ودوام ذكر الله والاحسان إلى الخلق والشجاعة ، وإخراج دغل القلب وترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم .

وأضداد هذه الصفات : سبب الهم والغم والضيق والحصرة .

(فصل)

قال شيخ الاسلام رحمه الله :

فقد تبين لك . أن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكذب والمعاصي : التشبه بالكافرين كما أن من أصل كل خير : المحافظة على السنن وشرائع الأنبياء ولهذا عظم وقع البدع في الدين . أ.هـ الاقتضاء

وقال أيضا رحمه الله :

وقد جاء في الأثر : (يا عبدي أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون يا عبدي أنا الحي الذي لا يموت أطعني أجعلك حياً لا تموت) .

وفي الأثر : أن المؤمن تأتيه التحف من الله من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت فهذه غاية ليس وراءها مرمى كيف لا وهو بالله يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي فلا يقوم لقوته قوة . هـ من الفتاوي الكبرى

(فصـــــل)

ولما كان الشيخ رحمه الله تعالى في القلعة أرسل إليه خصومُه رجلين بأن ينزل لهم عن القول في الأستواء على العرش والقول في القرآن بأنه كلام الله ولا نُعلْم أحداً به ونوقف السلطان على كلامك حتى تخرج من الحبس .

فقال لهم : تدعونني أن أكتُب بخطي أنه ليس على العرش إلّه يُعبد ولا في المصاحف قرآن ولا لله في الأرض كلام ، ودق بعمامته الأرض وقام واقفاً ورفع رأسَه إلى السماء وقال : اللهّم إنّي أشهدك على أنهم يدعونَني أن أكفر بك وبكتبك ورسلك وأنّ هذا الشييء لا أفعله ، اللهم أنزل بهم بأسَك الذي لا تَرّده عن القوم المجرمين نفذَت فيهم سهام الله والله لتقبلن دولة بيبرس أسفلَها أعلاها ويكون أعزُ من فيها أذلُ من فيها ولينتقمنَّ الله من الكبير والصغير وكم أجد عليهم وما أدعو عليهم .

وبعد ذلك جاء رجل إلى الشيخ يقال له علي الفراّ فقال : رأيت في المنام كأن البحر قد زاد حتى دخل الماء في جميع طرق البلد وهو أسود مثل القطران ويغلي مثل القدر على النار ، وأنت وأصحابك على سفينة وتقول النجا النجاء وتقرأ قوله تعالى « ألم ترى كيفَ فعَلَ ربُك بِأصْحَابِ الفِيل ... الخ » الآية .

ثم بعد مدة أخبروه أنهم يريدون أن يسفروه فقال : أنا إن قتلت كانت لي شهادة وإن نُفِيتِ كانت لي هجرة ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلَها إلى الله وأَجَابوني وإن حبست كان لي متعبداً وأنا مثل الغنمة كيفما تقلَّبت تقلّبت على صوف وأنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهى معي لا تفارقني فيئسو منه ولله الحمد هـ .

ولما أرادوا أن يسيروه إلى الاسكندرية جعل يدعو بدعاء الكرب وصار في وجهه نور وبهاء شيئاً عظيماً كأن وجهه شمع مثل العروس وأشرت إلى أهل الحبس حتى ينظروا إلى وجهه ثم جاءوا إليه وقالوا : بسم الله بسم الله فخرج وركب من باب الحبس فقال له إنسان : يا حبيبي هذا مقام الصبر . فقال الشيخ : بل هذا مقام الحمد والشكر لله إنه قد نزل على قلبي من الفرح والسرور ما لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم هـ من ناحية من حياة الشيخ .

(فصـــــل)

قال إبن القيم رحمه الله بعد كلام سبق فيما يعرّف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته قال بعد ذلك :

الثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم تفتح له باب

بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمان فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة . ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتجميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوق بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا الله ربُها ومليكها فينزل الأمرُ بإحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين . وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على إختلافها وتباينها وكثرتها . من جبر كسير وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإعانة لعاجز ، وإنتقام من ظالم وكف لعدوان فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيىء منها عن سمع غيره ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على إختلاف لغاتها وتباينها وإتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فحينئذ يقوم القلبُ بين يدي الرّحمٰن مطرحاً لهيبته ، خاشعاً لعظمته ، عانياً لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب . أ.هـ مفتاح دار السعادة

وقال إيضا رحمه الله تعالى :

الحالة الثانية : أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى فيسقط منازعة باعث الدين بالكلّية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاءوا وله معهم حالتان :

إحداهما : أن يكون من جندهم وأتباعهم . وهذه حال العاجز الضعيف .

الثانية : أن يصير الشيطان من جنده . وهذه حال الفاجر القوي المسلّط والمبتدع الداعية المتبوع ، فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم واشترو الحياة الدنيا بالآخرة . وإنما صاروا إلى هذه الحال لمّا أفلسوا من الصبر . وهذه الحال هي حال جهد البلاء . ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء وجند أصحابها المكر والخداع والأماني الباطلة والغرور والتسويف بالعمل وطول الأمل وإيثار العاجل على الآجل ، وهي التي قال فيها النبيُ ﷺ « العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » وأصحاب هذه الحال أنواع شتى فمنهم المحارب لله ولرسوله . الساعي في إبطال ما جاء به الرسول . يصدّ عن السبيل ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً ليصد الناس عنها .

ومنهم المعرض عما جاء به النبي ﷺ المقبل على دنياه وشهواتها فقط ومنهم المنافق ذو الوجهين الذي يأكل بالكفر والاسلام ، ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهّو واللعّب ، ومنهم من إذا وعظ قال واشوقاه إلى التوبة ولكنها تعذّرت عليّ فلا مطمع لي فيها ، ومنهم من يقول ليس الله محتَاجاً إلى صلاتي وصيامي . وأنا لاأنجو بعملي والله غفور رحيم ، ومنهم من يقول : ترك المعاصي إستهانة بعفو الله ومغفرته . هـ من الأغاثة

(فصـــــل)

وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وبالجملة فقرب الرب من قلوب المؤمنين وقرب قلوبهم منه معروف لا يجهل فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الايمان والمعرفة والذكر والخشية والتوكل وهذا متفق عليه بين الناس كلهم . (إنتهى من الفتاوي)

(فصــــــل)

قال شيخ الاسلام مفتى الانام رحمه الله تعالى : وإن قال بل الرحمة ما ينزله على قلوب قوّام الليل في تلك الساعة من حلاوة المناجات والعبادة وطيب الدعاء والمعرفة وما يحصل في القلوب من مزيد المعرفة بالله والايمان به وذكره وتجليّه لقلوب أوليائه فإن هذا أمرٌ معروف يعرفه قوّام الليل .

قيل له : حصول هذا في القلوب حق لكن هذا ينزل إلى الأرض إلى قلوب عباده لا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يبقى بعد نزوله وهذا الذي يوجد في القلوب هي من آثار ما وصف به نفسه من نزوله بذاته سبحانه وتعالى وتقدس . هـ فتاوي

(فصــــــل)

وأما الأوتاد فقد يوجد في كلام بعضهم أنّه يقول : فلان من الأوتاد ومعنى ذلك : أن الله يُثبتّ به من الدين والايمان في قلوب من يهديهم الله به كما يثبت الأرض بأوتادها ، هذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة فكل من حصل به تثبيت العلم والايمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة والجبال الكبيرة ومن كان دونه كان بحسبه وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة لقول المنجمين في أوتاد الأرض . هـ في الفتاوي لشيخ الاسلام

وقال أيضا رحمه الله ورضى عنه :بعدكلام له سبق والله سبحانه وتعالى غني عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته بل هو الحامل بقدرته العرش وحملة العرش وقد جعل الله العالم طبقات ولم يجعل أعلاه مفتقراً إلى أسفله فالسماء لا تفتقر إلى الهوى والهوى لا يفتقر إلى الأرض فالعلي الأعلى رب السموات والأرض أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شيءٍ بحمل أو غير حمل . من الرسائل

(فصل)

(وقال الإمام إبن قيم الجوزيه ذو الأحوال المرضيه رحمه الله)

في البدائع

سبحان من أنعم على الموجودات بايجادها من غير طلب فلما وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها فالأجنة في بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق والبذر تحت التراب يطلب قوته من الري ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم وطلاّب العلم يسألون فتح مغلق الفهم وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع والمظلوم يترقّب طلوع فجر النصر والمريض يتململ بين يديه طلباً للطفه والمكروب ينتظر كشف ما به ، والخائف يترقب بريد الأمن ، والأبدان المتمزقة في اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات ، وعرائس الجنان يسألن سلامة بعولتهن وتعجيل اللّقاء ، فإذا قام الخلق من أطباق التراب بأنعاش البعث نكس صاحب الزلل رأس الندم طلباً للعفو ومدّ العابدُ يد التقاضي بالمسلّم فيه عند حلول الأجل وحدّق الزاهدُ إلى جزاء الصبر وأشرف المحب على أطلال الشوق إلى الحبيب وصاح العارفُ بلسان الوجد إذْ لم يبق وقت للصبر .

(فصل)

(قال الشيخ مفتي الأنام رحمه الله تعالى ورضى عنه)

قوله ﷺ « زويت لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » وكان كما أخبر فبلغ ملك أمته طرفي العمارة مشرقاً ومغرباً وانتشرت دعوتُه في وسط الأرض كالإقليم الثالث والرابع والخامس لأنهم أكمل عقولًا وأخلاقاً وأعدل أمزجة بخلاف طرفي الجنوب والشمال فإنهم نقصت عقولُهم وأخلاقهم وانحرفت أمزجتهم .

أما طرف الجنوب فإنه لقوة الحرارة إحترقت أخلاطهم فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم ، وأما طرف الشمال فإنهم لقوة البرد لم تنضج أخلاطهم بل صارت فجّة فأفرطوا في سبوطة الشعر والبياض البارد الذي لا يستحسن . هـ من الجواب الصحيح .

وقال أيضا في إقتضاء الصراط المستقيم :

ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله وتدبره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى والشفاء للقلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيىء من الكلام لا منظومه ولا منثوره . ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته كالأسحار وأدبار الصلوات والسجود ونحو ذلك أغناه عن كل دعاء مبتدع في ذاته أو في بعض صفاته . فعلى العاقل أن يجتهد في إتباع السنة في كل شيء من ذلك وعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن فإنه من يتحر الخير يعطه ومن يتوقي الشر يوقه .

وقال رحمه الله تعالى :

فإن من تعلم العلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ وعلمه لوجه الله كان صديقاً ومن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وقتل كان شهيداً ومن تصدق يبتغي بذلك وجه الله كان صالحاً .

وقال أيضا رحمه الله :

والمؤمنون في الأولين و الأخرين مشتركون بالايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ولكن بينهم تفاوت ما في القلوب إذا ذكر الله وما في اليوم الآخر وما في ذكر الجنة والنجاة من النار ونحو ذلك يزداد الايمان الواجب . هـ من الفتاوي .

(فصـــــل)

وقال إبن القيم رحمه الله تعالى

قال أبو بكر الكتاني :

جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى – أيام المواسم – فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً . فقالوا : هات ما عندك يا عراقي فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرقت قلبه أنوار هيبته وصفاً شربه من كأس ودّه وإنكشف له الجبّار من أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكّن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله . هـ ما ذكره رحمه الله في المدارج .

(فصـــــل)

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها . وهى عشرة . أحداها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به : كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبدُ ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه به .

الثاني : التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة .

الثالث : دوام ذكر الله على كل حال · باللسان والقلب ، والعمل ، والحال ، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المحبة وميادينها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، أحبه لا محالة ولهذا كانت المعطّلة الفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس : مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته .

السابع : وهو من أعجبها إنكسار القلب بكليته بين يدي الله وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه . والوقوف بالقلب والتأدب بآداب العبودية بين يديه ، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحّت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب . وملاك ذلك أمران :

الأول : إستعداد الروح لهذا الشأن .

الثاني : وانفتاح عين البصير . وبالله التوفيق هـ من المدارج .

« فصـــل مهـــم »

وقال رحمه الله ورضى عنه :

وصحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده بعد الإسلام ، بل ما أُعطى عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ

منهما بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما وبهما يأمن العبد من طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم وهم أهل الصراط المستقيم الذين أُمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميِّز به الصحيح والفاسد والحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد ويمده حسن القصد وتحرّى الحق وتقوى الرب في السر والعلانية ويقطع مادته إتباع الهوى وإيثار الدنيا وطلب محمدة الخلق وترك التقوى . هـ من الأعلام

(فصل)

وقال مفتي الأنام وعلم الأعلام شيخ الاسلام أحمد بن تيمية رحمه الله : واليهود بالغوا في إجتناب النجاسات وتحريم الطيبات .

والنصارى إستحلوا الخبائث ، وملابسة النجاسات . والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافاً لليهود وحرم عليهم الخبائث خلافاً للنصارى .

واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم .

والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم ، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً .

والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ولا ذكاء .

واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة ، والمسلمون جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح وبين الذكاء . هـ من الجواب الصحيح

وقال في الأختيارات :

وإن إحتاج الانسان إلى النكاح وخشى العنت قدمه على الحج الواجب :

ويحرم النظر إلى النساء والمردان بشهوة ومن إستحلّه كفر إجماعاً .

وتحرم الخلوة بأمرد حسن ومضاجعته كالمرأة الأجنبية ولو لمصلحة تعليم وتأديب . والمقر ليتيمه أو وليّه عند من يعاشره لذلك فهو ملعون ديوث .

ومن عرف بمحبتهم أو معاشرتهم منع من تعليمهم .

* * *

الرسالة التبوكية

تأليف
الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه
٦٩١ - ٧٥١

الطبعة الثالثة ١٣٩٦

نشرها
قُصي محب الدين الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة التّبوكيْة

« بك اللهم نستعين وعليك نتوكل »

قال الشيخ الامام العالم محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزيه رضي الله عنه وأرضاه في كتابه الذي سيّره من تبوك ثامن المحرّم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة بعد كلام سبق .

وبعد ، أحمد الله بمحامده التي هولها أهل ، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ وبعد .. فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب» المائدة .

وقد إشتملت هذه الآية على جميع مصالح العاد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضاً وفيما بينهم وبين ربهم فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين ، وهذين الواجبين :

واجب بينه وبين الله ، وواجب بينه وبين الخلق .

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة ، فالواجب عليه فيها أن يكون إجتماعه بهم وصحبته لهم : تعاوناً على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه ولا سعادة له إلا بها : وهى البر والتقوى اللّذان هما جماع الدين كله .

وإذا أفرد كل واحد من الأسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمناً ، وإما لزوماً ودخوله فيه تضمناً أظهر لأن البر جزء مسمى التقوى وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الإقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند إنفراد الآخر .

ونظير هذا : لفظ الايمان والاسلام ، والايمان والعمل الصالح ، والفقير والمسكين ، والفسوق والعصيان ، والمنكر والفاحشة ونظائره كثيرة. وهذه قاعدة جليلة من أحاط بها زالت عنه إشكالات كثيرة أشكلت على طوائف من الناس .

ولنذكر من هذا مثالًا واحداً يستدل به على غيره وهو البر والتقوى : فإن حقيقة البر هو المال المطلوب من الشيء والمنافع التي فيه والخير كما يدل عليه إشتقاق هذه اللّفظة وتعاريفها في الكلام .

ومنه البُر بالضم لمنافعه وخيره بالإضافة إلى سائر الحبوب . ومنه رجل بارٌّ وَبرٌّ وكرام بَرَرَه والأبرار .

فالبر كلمة جامعة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد ، وفي مقابلته الأثم . وفي حديث النواس بن سمعان أنّ النبي ﷺ قال له « جئت تسأل عن البر والأثم » .

فالإثم كلمة جامعة للشرور والعيوب التي يذم العبد عليها فيدخل في مسمى البر الايمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة ولا ريب أن التقوى جزء هذا المعنى .

وأكثر ما يعبّر عن برّ القلب وهو وجود طعم الايمان وحلاوته .

وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته ، وإنشراحه وقوته وفرحه بالايمان فإن للايمان فرحة وحلاوة ولذة في القلب فمن لم يجدها فهو فاقد الايمان أو ناقصه وهو من القسم الذين قال الله عز وجل فيهم :

« قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخلُ الايمانُ في قلوبهم » الحجرات : ١٤

فهؤلاء – على أصحّ القولين – مسلمون غير منافقين وليسوا بمؤمنين إذ لَم يدخل الايمان في قلوبكم فيباشرها حقيقة .

وقد جمع الله سبحانه وتعالى خصال البر في قوله تعالى « ليس البرُ أن تولوا وجوهَكم قِبلَ المشرقِ والمغرب ولكن البّر مَن آمن بالله واليوم الآخر والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتىَ المالَ على حُبّهِ ذوي القربىٰ واليتمى والمسكين وإبن السبيل والسائلين وفي الرّقاب وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفون بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتقون » (البقرة : ١٧٧)

فأخبر سبحانه وتعالى : أن البر هو الايمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هى أصول الايمان الخمس التي لا قوام للايمان إلا بها وأنها الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة وأنها الأعمال القلبية التي هى حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين : حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب وأصول الايمان الخمس ، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن هذه أنها هى خصال التقوى بعينها فقال « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وأمّا التقوى فحقيقتُها العمل بطاعته إيماناً وإحتساباً . أمراً ونهياً فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر وتصديقاً بوعده . ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي وخوفاً من وعيده كما قال طلق بن حبيب « إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى » قالوا : ما التقوى ؟ قال : « أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » .

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى .

فإن كل عمل لابدّ له من مبدأ وغاية فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الايمان فيكون الباعث عليه هو الايمان المحض . لا عادة ولا هوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك .

بل لابد أن يكون مبدؤه محض الايمان وغايته ثواب الله وبتغاء مرضاته وهو الإحتساب .

ولهذا كثيراً ما يفرق بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » و « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً » ونظائره .

فقوله « على نور من الله » إشارة إلى الأصل الأول وهو الايمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه .

وقوله « ترجوا ثواب الله » إشارة إلى الأصل الثاني وهو الاحتساب وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل . ولهذا يقصد به . ولا ريب أن هذا إسم لجميع أصول الايمان وفروعه وأن البر داخل في هذا المسمى .

وأما عند إقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها . فإن البر مطلوب لذاته ، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم .

وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه ولفظها يدل على هذا. فإنها فُعلى من وقَى يقي وكان أصلها وقوى فقلبوا الواو تاء ، كما قالوا تُراث من الوراثة وتجاه من الوجه وتخمه من الوخمة ونظائرها فلفظها دال على أنها من الوقاية .

فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية والوقاية من باب دفع الضرر فالتقوى والبر كالعافية والصحة.

وهذا باب شريف ينتفع به إنتفاعاً عظيماً في فهم ألفاظ القرآن ودلالته ومعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ فإنه هو العلم النافع . وقد ذم الله تعالى في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ .

فإن عدم العلم بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين :

إحداهما : أن يدخل في مسمىٰ اللفظ ما ليس منه فيحكم له بحكم المراد في اللفظ . فيساوى بين ما فرق الله بينهما .

والثانية : أن يخرج من مسمى اللفظ بعض افراده الداخلة تحته ، فيسلب عنه حكمه . فيفرق بين ما جمع الله تعالى بينهما والذكي الفطن يتفطن لافراد هذه القاعدة وأمثالها فيرى أن كثيراً من الاختلاف أو أكثره إنما ينشأ من هذا الموضع وتفصيل هذا لا يفي به كتاب ضخم .

وفي هذا لفظ : الخمر . فإنه إسم شامل لكل مسكر فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه وينفي عنها حكمه .

وكذلك لفظ : الميسر . وإخراج بعض أنواع القمار منه .

وكذلك لفظ : النكاح . وإدخال ما ليس في مسماه .

وكذلك لفظ : الربا . وإخراج بعض أنواعه منه وإدخال ما ليس بربا فيه .

وكذلك لفظ : الظلم والعدل والمعروف والمنكر . ونظائره أكثر من أن تحص .

والمقصود من إجتماع الناس وتعاشرهم التعاون على البر والتقوى فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علماً وعملًا .

فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه ، فأقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الانساني قائما بعضه ببعضه . معيناً بعضه لبعضه .

ثم قال تعالى « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . والإثم والعدوان في جانب النهي نظير البر والتقوى في جانب الأمر . والفرق ما بين الإثم والعدوان كالفرق ما بين محرم الجنس ومحرم القدر .

فالإثم ما كان حراماً لجنسه . والعدوان ما حرم لزيادة في قدرة وتعدي ما أباح الله منه . فالزنا وشرب الخمر والسرقة ونحوها إثم . ونكاح الخامسة وإستيفاء المجني عليه أكثر من حقه ونحوه عدوان .

فالعدوان : هو تعدي حدود الله التي قال فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقال في موضع آخر « تلك حدود الله فلا تقربوها » فنهى عن تعديها في آية وعن قربانها في آية.

وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام . ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه . وتارة لا تكون داخلة فيه فتكون لها حكم المقابلة فبالاعتبار الأول فهى عن تعديها . وبالاعتبار الثاني نهى عن قربانها .

(فصـــــل)

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس وهو أن تكون مخالطته لهم تعاوناً على البر والتقوى . علماً . وعملاً .

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالى . فهو إيثار طاعته وتجنب معصيته وهو قوله تعالى « واتقوا الله » .

فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق . ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه في الوسط والقيام بذلك لمحض النصيحة والاحسان ورعاية الأمر .

ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية .

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو من عدم مراعاتها علماً وعملًا ، وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر قدس الله روحه .

« كن مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس ، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط ولم يزل أمره فرطاً » .

والمقصود بهذه المقدمة ما بعدها .

(فصل)

« في الهجرة إلى الله ورسوله »

لما فصل عير السفر وإستوطن المسافر دار الغربة وحيل بينه وبين مألوفاته ، وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه أحدث له ذلك نضراً ، فأجال فكره في أهم ما يقطع به منازل السفر إلى الله وينفق فيه بقية عمره فأرشده من بيده الرشد إلى أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلى الله ورسوله فإنها فرض عين على كل أحد في كل وقت وأنه لا إنفكاك لأحد عن وجوبها وهي مطلوب الله ومراده من العباد إذ الهجرة هجراتان .

الهجرة الأولى : هجرة بالجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله ﷺ . وهذه هي المقصودة هنا . وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية وهى الأصل . وهجرة الجسد تابعة لها .

وهى هجرة تتضمن (من) و (إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته ومن عبودية غيره إلى عبوديته ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه . ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه قال تعالى « ففروا إلى الله » والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه .

وتحت (من) و (إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد . فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والانابة والتوكل وسائر منازل العبودية فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي إتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله عليه وعليهم وسلامه أجمعين .

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر ، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده . فإنه ما شاء كان ووجب بمشيئه الله وقدره فهو في الحقيقة فار من الله إليه .

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » .

فإنه ليس في الوجود شيء يُفَر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقاً وإبداعاً .

فالفار والمستعيذ فارٌّ مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ماتقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه . ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه . ومستعيذ بالله منه . وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد إنقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه لم يبق خوف من غير خالقه وموجوده .

فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء . ولو كان فرار مما لم يكن بمشيئته وقدرته . لكان ذلك موجباً لخوفه منه . مثل من يفر من مخلوق إلى مخلوق آخر أقدر منه . فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذراً أن لا يكون الثاني يفيده منه بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره .

فتفطن لهذا السر العجيب في قوله « أعوذ بك منك » و « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا في هذا أقولا وقل من تعرض منهم لهذه النكته التي هى لب الكلام ومقصوده وبالله التوفيق .

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه . وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى . ولهذا قال النبي ﷺ « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ».

ولهذا يقرن الله سبحانه بين الايمان والهجرة في غير موضع لتلازمهما وإقتضاء أحدهما للآخر .

والمقصود أن الهجرة إلى الله تتضمن : هجَران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخـــر .

وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه الله ويرضاه ، وقد بُلِيَ بهؤلاء الثلاث فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا **يفك** من هجرته إلى الممات .

(فصـــــل)

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة .

والذي يقضي منه العجب : أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام وفي الهجرة التي إنقطعت بالفتح . وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به في العمر أصلًا ، وأما الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس فإنه لا يحصّل فيها علماً ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خُلق له والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره وهذا حال من عشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال .

والله المستعان ، وبه التوفيق ، لا إله غيره ولا رب سواه .

(فصـــــل)

« في الهجرة إلى رسول الله ﷺ »

وأما الهجرة إلى رسول الله ﷺ ، فعلم لم يبقى منه سوى إسمه ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه ، سفت عليها السوافي فطمست رسومها وغارت عليها الأعادي ففوّرت مناهلها وعيونها .

فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حي وناد ، بعيد على قرب المكان ، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون ، مستأنس مما به يستوحشون ، مقيم إذا ظعنوا ، ظاعن إذا قطنوا ، منفرد في طريق طلبه. لا يقر قراره حتى يظفر بأربه ، فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده نامت في طلب الهدى أعينهم وما ليل مطيته بنائم . وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو في طلبها مُشمّر قائم : يعيبونه بمخالفة آرائهم ويزرءون عليه إزرائه على جهالتهم وأهوآئهم قد رجموا فيه الظنون وأحد قوافيه العيون وتربصوا به ريب المنون « فتربصوا إنَّا معكم متربصون » .

« قَال ربِ إحُكُمْ بِالحق وَرُبنا الرحمنِ المستعَان على مَا تصفُون ».

نحن وإياكم نموت فمـــا ★ أفلح عند الحسابِ مَنْ ندما

والمقصود : أن هذه الهجرة النبويّة شأنُها شديد وطريقها على غير المعتاد[1] بعيد :

(بعيد على كسلان أو ذي ملَالةٍ ★ وأمّا علىَ المشتاق فهو قريب)

ولعمر الله ما هي إلا نور يتلألأ ولكن أنت ظلامه وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ولكن أنتَ غيمه وقتامه ومنهل عذب صاف وأنت كدره ومبتدأ لخبر عظيم ولكن ليس عندك خبره .

فأسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها وحاسب ما بينك وبين الله . هل أنت من المهاجرين لها أو المهاجرين إليها.

فحدُ هذه الهجرة : سفر النفس في كل مسألة من مسائل الايمان ومنزل من منازل القلوب . وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ، ومنبع النور الملتقى من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن

---

(١) في نسخة « المشتاق » .

هو إلا وحي يوحى» فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته وإلا فأقذف بها في بحر الظلمات . وكل شاهد عدَّلت هذا المزكي وإلا فعدّه من أهل الريب والتهمات . فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده ، القاطن في دار مرباه ومولده القائل : إنّا على طريقة آبائنا سالكون وإنا بحبلهم متمسكون وإنا على آثارهم مقتدون ، وما لهذه الهجرة التي كلَّت [1] عليهم . وإستند في طريق نجاحه وفلاحه إليهم . معتذراً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه. وأن ظنونَهم وآراءهم أوثق من ظنه وحدسه ، ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه الكلمة لوجدتها صادرة عن الاخلاد إلى أرض البطاله متولدة بين الكسل وروحه الملالة .

والمقصود : إن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهي مقتضى « شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ » كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » وفي هاتين الهجرتين يُسأل كلُ عبدٍ يوم القيامة وفي البرزخ ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

قال قتادة : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين .

وهاتان الكلمتان مضمون الشهادتين ، وقد قال تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

---

[1] هكذا بالأصل .

فأقسم سبحانه بأجل مقسم به – وهو نفسه عز وجل – على أنه لا يثبت لهم الإيمان ، ولا يكونون من أهله ، حتى يحكّموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين فإن لفظة « ما » من صيغ العموم، فإنها موصلة تقتضي نفي الايمان أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم ولم يقتصر على هذا حتى ضمّ إليه إنشراح صدورهم بحكمه . حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً – وهو الضيق والحصر – من حكمه بل يقبلوا حكمه بالإنشراح ويقابلوه بالتسليم لا أنهم يأخذونه على إغماض ويشربونه على قذى . فإن هذا مناف للإيمان ، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضا وإنشراح صدر .

ومتى أراد العبد أن يعلم هذا فلينظر في حاله ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه . أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها « بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره » .

فسبحان الله كم من حزازة في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص وبودهم أن لو لم ترد . وكم من حرارة في أكبادهم منها . وكم من شجى في حلوقهم منها ومن موردها . ستبدوا لهم تلك السرائر بالذي يسوء ويخزى يوم تبلى السرائر ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضمّ إليه قوله تعالى « ويسلموا تسليماً » فذكر الفعل مؤكدا بمصدره القائم مقام ذكره مرتين . وهو التسليم والخضوع له والانقياد لما حكم به طوعاً ورضاً وتسليماً لا قهراً ومصابرة ، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً ، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه يعلم أن سعادته وفلاحه في تسليمه إليه ، ويعلم بأنه أولى به من نفسه ، وأبرّ به منها وأرحم به منها

وأنصح له منها وأعلم بمصالحه منها . وأقدر على تخليصها . فمتى علم العبد هذا من الرسول ﷺ ، وإستسلم له ، وسلم إليه ، انقادت له كل علة في قلبه ورأى أن لا سعادة له إلا بهذا التسليم والانقياد .

وليس هذا مما يحصل معناه باالعباره بمعناه ، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني .

وكلٌ يدعي وصلًا لليلى ★ وليلى لا تقر لهم بذاك

وفرق بين علم الحب وحال الحب فكثيراً ما يشتبه على العبدْ علم الشيء بحاله ووجوده . وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو متخن بالمرض وبين الصحيح السليم وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده .

وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنى المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد :

أولها : تصديرها يتضمن المقسم عليه للنفي(١) وهو قوله « لا يؤمنون » وهذا منهج معروف في كلام العرب إذا أقسموا على شيء منفي صدروا جملة القسم بأداة نفي مثل هذه الآية .

ومثل ما في قول الصديق رضي الله عنه (لاها الله) لا يعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه ، وقول الشاعر :

فلا وأبيك إبنة العامري ★ لا يدعي القوم أني أفر

وقال الآخر :

فلا والله لا يُلقَى لما بي ★ ولا لما بهم أبداً دواء

وهذا في كلامهم أكثر من أن يذكر .

---

(١) في الجملة تحريف لأن المثل يخالف الممثل له والعل الصواب هذا يتضمن القسم المنفي فتأمل تصديرها بحرف النفي .

وتأمل جمل القسم التي في القرآن المصدرة بحرف النفي كيف تجد المقسم عليه منفياً ومتضمناً للنفى ؟ ولا يحرف هذا قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم » .

فإنه لما كان المقصود بهذا القسم نفي ما قاله الكفار في القرآن من أنه شعر أو كهانة أو أساطير الأولين . صدّر القول بأداة النفي ، ثم أثبت له خلاف ما قالوه ، فتضمنت الآية أن ليس الأمر كما يزعمون ، لكنه قرآن كريم . ولهذا صرح بالأمرين : النفي والاثبات مثل قوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين وما هو بقول شيطان رجيم ».

وكذلك قوله تعالى « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الانسان الّن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

والمقصود أن إفتتاح هذا القسم بأداة النفي يقتضي تقوية المقسم عليه وتأكيده وشدة إنتفائه .

وثانيها : تأكيده بنفس القسم .

وثالثها : تأكيده فالمقسم به . وهو إقسامه بنفسه لا بشيءٍ من مخلوقاته :

وهو سبحانه يقسم بنفسه تارة وبمخلوقاته تارة .

ورابعها : تأكيده بانتفاء الحرج وهو وجود التسليم .

وخامسها : تأكيد الفعل بالمصدر . وما هذا التأكيد إلا لشدة الحاجة إلى هذا الأمر العظيم . وأنه مما يعتنى به ويقرر في نفوس العباد بما هو من أبلغ أنواع التقرير .

وقال تعالى « النبيُ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم » وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين ولهذه الأولوية أموراً.

منها : أن يكون أحب إلى العبد من نفسه لأن الأولوية أصلها الحب. ونفس العبد أحب له من غيره ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها . فبذلك يحصل له إسم الإيمان .

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة . من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه .

ومنها : أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده ، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول ﷺ . الذي هو أولى به منها .

فيا عجبا ! كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم ورضي بحكم غيره وإطمأن إليه أعظم من إطمئنانه إلى الرسول ﷺ وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته وإنما يتلقى من دلالة العقول وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين . إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه وعما جاء به . والحوالة في العلم النافع إلى غيره. وذلك هو الضلال البعيد ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه وتوليته في كل شيء وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به ، فإن شهد له بالصحة قبله وإن شهد له بالبطلان رده . وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين له أي الأمرين أولى به ، فمن سلك هذه الطريقة إستقام له سفر الهجرة وإستقام له علمه وعمله وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة .

ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامّة من كان سعيه وإجتهاده ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها ، والغضب والمحبة لها والرضا بها والتحاكم إليها وعرض ما قاله الرسول ﷺ عليها فإن وافقها قبله وإن خالفها إلتمس وجوه الحيل وبالغ في رده ليًّا وإعراضا كما قال تعالى « وإن تَلْووا أو تعرِضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وقد إشتملت هذه الآية على أسرار عظيمة يجب التنبيه على بعضها لشدة الحاجة إليها .

قال الله تعالى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلْووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

فأمر سبحانه بالقيام بالقسط وهو العدل في هذه الآية ، وهذا أمر بالقيام في حق كل أحد عدواً كان أو وليا وأحق ما قام له العبد بقصد الأقوال والآراء والمذاهب إذ هى متعلقه بأمر الله وخبره .

فالقيام فيها بالهوى والمعصية مضاد لأمر الله مناف لما بعث به رسوله ﷺ .

والقيام فيها بالقسط وظيفة خلفاء الرسول ﷺ في أُمته وأمنائه بين أتباعه . ولا يستحق إسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض نصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولعباده ، وأولئك هم الوارثون حقاً . لا من يجعل أصحابه ونحلته ومذهبه معياراً على الحق وميزاناً له ، ويعادي من خالفه ويوالي من وافقه بمجرد موافقته ومخالفته . فأين هذا من القيام بالقسط الذي فرضه الله على كل أحد وهو في هذا الباب أعظم فرضاً وأكبر وجوباً .

ثم قال تعالى « شهداء لله » الشاهد هو المخبر . فإن أخبر بحق فهو شاهد عدل مقبول وإن أخبر بباطل فهو شاهد زور .

وأمر تعالى أن يكون شهيداً له مع القيام بالقسط ، وهذا يتضمن أن تكون الشهادة بالقسط ، وأن تكون لله لا لغيره .

فتضمنت الآيتان أموراً أربعة :

أحدهما : القيام بالقسط – والثاني : أن يكون لله
الثالث : الشهادة بالقسط – الرابع : أن تكون لله

وأختصت آية النساء بالقسط والشهادة لله . وآية المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره .

ثم قال تعالى « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فأمر سبحانه أن يقام بالقسط ويشهد على كل أحد ولو كان أحب الناس إلى العبد . فيقوم بالقسط على نفسه ووالديه اللذين هما أصله . وأقاربه الذين هم أخص به والصديق من سائر الناس فإن كان ما في العبد من محبة لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق ولا سيما إذا كان الحق لمن يبغضه ويعاديه قبلهم . فإنه لا يقوم به في هذا الحال إلا من كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما وهذا يمتحن به العبد إيمانه فيعرف منزلة الايمان من قلبه ومحله عنه وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يجفوه ، فإنه لا ينبغي أن يحمله بغضه لهم أن يحيف عليهم كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه على أن يترك القيام عليهم بالقسط فلا يدخله ذلك البغض في باطل ولا يقصر به هذا الحب عن الحق .

قال بعض السلف : العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل وإذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق .

فاشتملت الآيتان على هذين الحكمين : وهما القيام بالقسط والشهادة به على الأولياء والأعداء .

ثم قال تعالى « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » منكم هو ربهما ومولاهما وهما عبيده ، كما أنكم عبيده فلا تحابوا غنياً لغناه . ولا فقيراً لفقره. فإن الله أولى بهما منكم وقد يقال فيه معنى آخر أحسن من هذا . وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة على الغني والفقير . أما الغني فخوفاً على ماله ، وأما الفقير فالاعدامه وأنه لا شيىء له . فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق . فقيل لهم والله أولى بالغني والفقير منكم أعلم بهذا وأرحم بهذا . فلا تتركوا آداء الحق والشهادة على غني ولا فقير .

ثم قال تعالى « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » نهاهم عن إتباع الهوى الحامل على ترك العدل .

وقوله تعالى « أن تعدلوا » منصوب الموضع لأنه مفعول لأجله وتقديره عند البصريين كراهية أن تعدلوا أو حذر أن تعدلوا فيكون إتباعكم للهوى كراهية العدل أو فراراً منه وعلى قول الكوفيين التقدير أن لا تعدلوا . وقول البصريين أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» ذكر سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذراً منهما ومتوعداً عليهما .

أحدهما اللّي والآخر الأعراض فإن الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يروم دفعها طريقاً إلى دفعها أعرض عنها وأمسك عن ذكرها فكان شيطان أخرس .

وتارة يلويها ويحرفها : اللّي مثال الفتل وهو التحريف وهو نوعان :

ليٌّ في اللفظ وليٌّ في المعنى ، فاللى في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها .

وليٌّ في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره فهذا أحد نوعي اللىَّ .

والنوع الثاني منه : لىّ المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم وبجهالة ما لم يرده أو يُسقط منه لبعض المراد به ونحو هذا في ليّ المعاني فقال تعالى « وإن تلووا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

ولما كان الشاهد مطالباً بأداء الشهادة على وجهها فلا يكتمها ولا يغيرها كان الإعراض نظير الكتمان واللىّ نظير تغييرها وتبديلها فتأمل ما تحت هذه الآية من كنور العلم .

والمقصود أن الواجب الذي لا يتم الإيمان - بل لا يحصل مسمى الايمان - إلا به . مقابلة النصوص بالتلقي والقبول والإظهار لها ودعوة الخلق إليها ، ولا تقابل بالاعتراض تارة وباللى أخرى .

وقال تعالى « وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » .

فدل هذا على إنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري . فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه . وأن ذلك لا لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً. فدل على أن ذلك مناف للإيمان .

وقد حكى الشافعي رضى الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من إستبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ولم يستريب أحد من أئمة الاسلام في صحة ما قاله الشافعي رضى الله عنه فإن الحجة الواجب إتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم

الذي لا ينطق عن الهوى وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع فضلا عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذا بالله من الخذلان .

وقال تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأحذروا فإن توليتم فأعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » .

فأخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها ، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه وليس هذا من دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت فلا وجود لها بدون شروطها ، إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه وإلا لم يكن شرطاً له.

إذا ثبت هذا ، فالآية نص على إنتفاء الهداية عند عدم طاعته .

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة سنذكرها عن قريب إن شاء الله .

وقوله تعالى « فإن تولوا فإنما عليه ما حمل » الفعل للمخاطبين وأصله فإن تتولوا . فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً . والمعنى أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها وحملتم طاعتَه والأنقيادَ له والتسليم .

كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال « من الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم » فإن تركتم أنتم ما حملتموه من الايمان والطاعة فعليكم لا عليه فإنه لم يُحمل إيمانكم وإنما حمل تبليغكم ، وإنما حمل آداء الرسالة إليكم « وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » (النور ٥٤) . ليس عليه هداهم وتوفيقهم .

وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (النساء ٥٩) .

فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله وإفتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخوطبوا به كما يقال يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن كما أحسن الله إليك .
يا أيها العالم علّم الناس ماينفعهم ويأيها الحاكم أحكم بالحق ونظائره

ولهذا كثير ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع كقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » (البقرة ١٨٣) .
« يا أيها الذين آمنوا إذا نُودي للصلاة » (الجمعة ٩) .
«يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (المائدة ١) ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا فإنه من موجبات الايمان وتمامه .
ثم قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » (النساء ٥٩) .

فقرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر وسلط عليهما عاملًا واحداً وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ولكن الواقع هنا في الآية المناسب .

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه وإن لم يكن مأموراً به بعينه في القرآن طاعة الرسول مفردة ومقرونة فلا يتوهم متوهم أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب

طاعته فيه كما قال النبي ﷺ (يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ما وجدنا فيه من شيء إتبعناه ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه » .

أما أولوا الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا إندرجت تحت طاعة الرسول لا طاعة مفرة مستقلة .

(كما صح عن النبي ﷺ أنه قال : على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله تعالى فإذا أمر بمعصية الله تعالى فلا سمع ولا طاعة) .

فتأمل كيف إعادة هذا المعنى قوله تعالى « فردوه إلى الله والرسول » ولم يقل وإلى الرسول فإن الرد إلى القرآن رد إلى الله والرسول ، فما حكم به الله تعالى هو بعينه حكم رسوله وما يحكم به الرسول ﷺ هو بعينه حكم الله ، فإذا رددتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه فقد رددتموه إلى رسوله وكذلك إذا رددتموه إلى رسوله فقد رددتموه إلى الله وهذا من أسرار القرآن .

وقد إختلفت الرواية عن الأمام أحمد رحمه الله تعالى في أولي الأمر وعنه فيهم رحمه الله روايتان :

أحدهما أنهم العلماء ، والثانية أنهم الأمراء والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية .

والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعاً فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله ﷺ فإن العلماء ولاته حفظاً وبياناً وذبًّا عنه ورداً على من الحد فيه وزاغ عنه وقد وكلهم الله بذلك فقال « فإن يكفر بها هؤلآء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » (الأنعام ٨٩) .

فيا لها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم وكون الناس تبعاً لهم والأمراء ولاته قياماً وعناية وجهاداً وإلزاماً للناس به وأخذهم على يد من خرج عنه وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الانساني تبع لها ورعيه .

ثم قال تعالى « فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وهذا دليل قاطع على أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضادّ أمر الله .

ومن دعا عند النزاع إلى حكم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية فلا يدخل العبد في الايمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله ، ولهذا قال الله تعالى « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » وهذا مما ذكرنا آنفاً أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه فدل على أن من حكّم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجاً من مقتضى الايمان بالله واليوم الآخر وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بياناً وشفاء فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها عاصمة للمتمسكين بها الممتثلين ما أمرت به .

قال الله تعالى « ليهلك من هلك عن بينة ويحيِ من حيِ عن بينة وإن الله لسميع عليم » (الأنفال) .

وقد إتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته والرد إلى سنته بعد وفاته .

ثم قال تعالى « ذلك خير وأحسن تأويلا » أي هذا الذي أمرتكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولياء الأمر ورد ما تنازعتم فيه اليّ وإلى رسولي

خير لكم في معاشكم ومعادكم وهو سعادتكم في الدارين فهو خير لكم وأحسن عاقبة فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلًا وآجلًا .

ومن تدبر العالم والشرور الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته وكل خير في العالم فإنه بسبب طاعة الرسول ﷺ وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول ﷺ وما يترتب عليه .

فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته لم يكن في الأرض شر قط وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض ، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ولأن طاعته هى الحصن الذي من دخله كان من الآمنين والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه وهذا برهان قاطع على أن لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالأجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملًا .

وكمال هذه السعادة بأمرين آخرين :

أحدهما : دعوة الخلق إليه .

والثاني : صبره وإجتهاده على تلك الدعوة .

فانحصر الكمال الأنساني على هذه المراتب الأربعة :

أحدها : العلم بما جاء به الرسول ﷺ .

والثانية : العمل به .

والثالثة : نشره في الناس ودعوتهم إليه .
والرابعة : صبره وجهاده في آدائه وتنفيذه .

ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم وأراد إتباعهم فهذه طريقتهم حقاً .

« فإن شئتَ وصْلَ القوم فاسلك سبيلهم
فقد وضحت للسالكين عيانا »

وقال تعالى لرسوله ﷺ « قل إن ضللتُ فإنما أضل على نفسي وإن إهتديتُ فبما يوحى إلى ربي إنه سميع قريب » .

فهذا نص صريح في أن هدي الرسول ﷺ إنما يحصل بالوحي فياعجباً : كيف يحصل الهدي لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطر به ولكن « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأى فلنتان ؟ وقول زيد وعمرو ؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى والحمد لله رب العالمين .

وقال تعالى « المص » كتاب أُنزل إليك فَلا يكنْ في صدرك حرجُ منه لتنذرَ به وذكرىَ للمؤمنين إتبعوا ما أُنزلَ إليكم من ربكم ولا تَتبعَوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون » .

فأمر سبحانه بإتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن إتباع غيره فما هو إلا إتباع المنزل وإتباع أولياء من دونه . فإنه لم يجعل بينهما واسطة فكل من

لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل ويتبع أولياء من دون الله وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به .

وقال تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » .

فكل من أتخذ غير الرسول ﷺ . يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ . فإنه قائل هذه المقالة لا محالة . ولهذا هذا الخليل كني عنه باسم فلان إذ لكل متبع أولياء من دون الله ، فلان وفلان ، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللّعنة كما قال تعالى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولْا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » (الأحزاب ٦٦ : ٦٨) .

تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك وأعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم وأعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم « ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية وبالله التوفيق .

وقال تعالى « فمن أظلم ممن إفترى على الله كذباً أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما

كنتم تدعون من دون الله قالوا : ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم : لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » (الأعراف ٣٧ - ٣٩) .

فليتدبر العاقل هذه الآيات وما إشتملت عليه من العبر وقوله تعالى « فمن أظلم مم إفترى على الله كذباً أو كذب بآياته » ذكر الصنفين المبطلين :

أحدهما : مُنشيء الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها .

والثاني : مكذب بالحق .

فالأول كفره بالافتراء وإفشاء الباطل .

والثاني كفره بجحود الحق .

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل فإن إنضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد الناس عن الحق إستحق تضعيف العذاب لكفره وشره .

ولهذا قال الله تعالى « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون » (النحل ٨٨) .

فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين ، عذاباً بكفرهم وعذاباً بصدهم عن سبيله وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب كقوله تعالى « والكافرين لهم عذاب أليم » .

وقوله تعالى « أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب » يعني ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك .

« حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا » زالوا وفارقوا وبطلت تلك الدعوة « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال أدخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجم والإنس في النار » ادخلوا في جملة هذه الأمم « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم » كل أمة متأخرة لأسلافها «ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار» بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك قال الله تعالى « لكل ضعف » من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلاله وكفره « ولكن لا تعلمون » لا تعلم كل طائفة بما في⁽¹⁾ أختها من العذاب المضاعف «وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل» فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل وبينوا لكم الحق وحذروكم من ضلالنا ونهوكم عن إتباعنا وتقليدنا فأبيتم إلا إتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل فأي فضل كان لكم علينا وقد ضللتم كما ضللنا . وتركتم الحق كما تركنا فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين فأي فضل كان لكم علينا .

« فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » فلله ما أشفاها من موعظة وما أبلغها من نصيحة . لو صادفت من القلوب حياة فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر .

(فصـــــل)

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة . وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليسوا متبعين لطريقتهم . فهم المذكورون في قوله تعالى « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لنا

---

(١) كذا بالأصل ولعلها « فيه » .

كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى . وأتباعهم أدعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم . يزعمون أنهم يحبونهم . وإن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم فيتبرءون منهم يوم القيامة . فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم .

وهذه حال كل من إتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء يوالى لهم ويعادي لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم فإن أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه . يجرد موالاته ومعاداته ومحبته وبغضه وإنتصاره وإيثاره لله ورسوله فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب . فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة وموالاة كانت لغير الله تعالى ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله . وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض والعطاء والمنع والموالاة والمعاداة والتقريب والأبعاد وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره . وترك ما خالف ما جاء به والإعراض عنه وعدم الاعتناء به وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره فضلا عن الشركة بينه وبين غيره فضلا عن تقديم قول غيره عليه .

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه . وهذه هى النسبة التي بين العبد وبين ربه وهى نسبة العبودية المحضة . وهى آخيته(١) التي يجول ما يجول ثم إليها مرجعه .

---

(١) الآخية « كآنية » عود يعرض في حائط أو في حبل يدق طرفاه في الأرض ويبرز طرفه كالحلقة يشد فيها الدابة .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه ابداً لأول منزل

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد . فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، فلا قوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة وهى السبب الواصل بين العبد وبين الله . ولقد أحسن القائل :

إذا إنقطع حبل الوصل بينهم فللمحبين حبل غير منقطع
وإن تصدع شمل القوم بينهم فللمحبين شمل غير منصدع

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي بين الخلق في الدنيا كانت كلها . ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله تعالى فقط وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم .

وقد قال الله تعالى « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » فهذه هي أعماله التى كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه . يجعلها الله هباءاً منثوراً ، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلا ، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة . أن يرى سعيه كله ضائعا لم ينتفع منه بشييء وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم .

(فصـــــل)

فهذا حكم أتباع الأشقياء ، فأما أتباع السعداء فنوعان :

أتباع لهم حكم الاستقلال : وهم الذين قال الله عز وجل فيهم « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » فهؤلاء السعداء الذين ثبت لهم رضاء الله عنهم وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة . ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط . وإنما خص التابعين بمن رأوا الصحابة تخصيصاً عرفياً ليتميزوا به عمن بعدهم فقيل : التابعون مطلقاً لذلك القرن فقط . وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان وهو ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وقيد سبحانه وتعالى هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره . ولكن تبعية مصاحبة الإحسان .

وأن الباء هاهنا للمصاحبة ، والاحسان في المتابعة شرط في حصول رضاء الله عنهم وجناته .

وقد قال الله تعالى « هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

فالأولون : هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه .

والآخرون : هم الذين لم يلحقوهم . وهم كل من بعدهم على منهاجهم إلى يوم القيامة .

فيكون التأخر وعدم اللحاق في الفضل والرتبة بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة والقولان كالمتلازمين .

فإن من بعدهم لا يلحق بهم لا في الفضل ولا في الزمان . فهؤلاء الصنفان هم السعداء . وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله ولم يرفع به رأساً فهو من الصنف الثالث وهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

وقد ذكر النبي ﷺ أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعث به من الهدى في قوله ﷺ (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاء . فذلك مثل من فقه في الدين فنفعه ما بعثني الله به ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) .

فشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث لأن كلا منهما سبب الحياة ، فالغيث سبب حياة الأبدان . والعلم سبب حياة القلوب وشبه القلوب بالأودية كما في قوله تعالى « أنزل من السماء ماءاً فسالت أودية بقدرها » . وكما أن الأراضي ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث :

أحدها : يثمر النبت من كل زوج بهيج ، فذلك مثل القلب الزكى الذكي فهو يقبل العلم بذكائه فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه فهو قابل للعلم . مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه .

والثانية : أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه . فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع . وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي

يحفظه كما سمعه فلا تصرف فيه ولا إستنبط ، بل للحفظ المجرد فهو يؤدى كما سمع . وهو من القسم الذي قال النبي ﷺ (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه ، ورب حامل فقه غير فقيه » .

فأول : كمثل الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات فهو يكسب بماله ما شاء .

والثاني : مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والمكسب ولكنه حافظ لما لا يحسن التصرف والتقلب فيه .

والأرض الثالثة : أرض قاع : وهو المستوي الذي لا يقبل النبات ولا يمسك ماء . فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه بشيء فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تنبت ولا تحفظ . وهو مثل الفقير الذي لا مال له ولا يمسك مالا .

فالأول : عالم معلم وداع إلى الله على بصيرة فهو من ورثة الرسل .

والثاني : حافظ مؤد لما سمعه . فهذا يحمل لغيره ما يتجر به المحمول إليه ويستثمر .

والثالث : لا هذا ولا هذا . فهو الذي لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً .

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم منها قسمان : قسم سعيد . وقسم شقي .

(فصـــــل)

وأما النوع الثاني من الأتباع : فهم أتباع المؤمنين من ذريتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا . وإنما هم مع آبائهم تبع لهم ، وقال الله تعالى فيهم « والذين آمنوا وإتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » .

أخبر سبحانه وتعالى أنه ألحق الذرية بآبائهم في الجنة كما أتبعهم إياهم في الايمان .

ولما كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالى « وما ألتناهم من عملهم من شيء » والضمير عائد إلى الذين آمنوا . أي وما نقصناهم من عملهم ، بل رفعنا ذريتهم إلى درجاتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم . فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل بل وفيناهم أجورهم فألحقنا بهم ذريتهم فوق ما يستحقون من أعمالهم ، ثم لما كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلا من الله فربما وقع في الوهم أن إلحاق الذرية أيضا حاصل لهم في حكم العدل . فلما أكتسبوا سيئات أو جبت عقوبة . كان كل عامل رهيناً بكسبه لا يتعلق بغيره فالإلحاق إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب وهذا نوع من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمهما من شاء .

فقد تضمنت هذه الآية أقسام الخلائق كلهم : أشقيائهم وسعدائهم . السعداء المتبوعين والأتباع . والأشقياء المتبوعين والأتباع .

فعلى العاقل الناصح لنفسه أن ينظر في أي الأقسام هو ولا يغتر بالعادة ويخلد إلى البطالة فإن كان من قسم سعيد **إنتقل إلى ما هو فوقه** وبذل جهده والله ولي التوفيق والنجاح .

وإن كان من قسم **شقي إنتقل** منه إلى القسم السعيد في زمن الإمكان قبل أن يقول : ياليتني إتخذت مع الرسول سبيلا .

(فصل)

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البر والتقوى والتعاون على سفر الهجرة إلى الله والرسول باليد واللسان والقلب والمساعدة والنصيحة

تعليماً وإرشاداً ومودة . ومن كان هكذا مع عباد الله فكل خير إليه أسرع . وأقبل الله إليه بقلوب عباده وفتح على قلبه أبواب العلم ويسره لليسرى ومن كان بالضد فبالضد .

فإن قلت : أشرت إلى سفر عظيم وأمر جسيم فما زاد هذا السفر وما طريقه وما مركبه ؟

قلت : زاده العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه . فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين . فرفقاء المتخلف البطالون أكثر من أن يحصوا . فله أسوة بهم . ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً كما قال تعالى « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم . أنكم في العذاب مشتركون » فقطع الله سبحانه إنتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب . فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة . وتأسي بعض المصابين ببعض كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسلي النفس عنهم بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشركين في العذاب يوم القيامة .

وأما طريقه : فهو بذل الجهد وإستفراغ الوسع فلا ينال بالمنى ولن يدرك بالهوينا . وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا
لكي تدرك العز الرفيع الدائم
فلا خير في نفس تخاف الردى
ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

أحدهما : أن لا يصبو في الحق إلى لوم لائم . فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ويجعله صريعاً في الأرض .

والثاني : أن تهون عليه نفسه في الله . فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال . فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض . ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر فمن صبر قليلا صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه فبينما هو يخاف منها إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه . وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

وأما مركبه فصدق اللجأ إلى الله تعالى والإنقطاع إليه بكليته وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه والضراعة إليه وصدق التوكل والاستعانة به والانطراح بين يديه إنطراح المثلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده فهو يتطلع إلى قيّمه ووليه أن يجدّه ويلم شعثه . ويمده من فضله ويستره . فهذا الذي يرجى له أن يتولى الله هدايته . وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها .

(فصــــــل)

ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله حيث تستولى على الفكر وتشغل القلب فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه . وصارت له التصرف وصار هو الأمير المطاع أمره فحينئذ يستقيم له سيره . ويتضح له الطريق . وتراه ساكناً وهو يبارى الريح« وتر الجبال تحسبها جامدةٍ وهى تمر مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيىء . إنه خبير بما تفعلون » .

(فصـــــل)

فإن قلت : إنك قد أشرتَ إلى مقام عظيم فافتح لي بابه وأكشف لي حجابه . وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا . فهل في البيان غير ما ذكروه ؟

قلت : سأضرب لك أمثالًا تحتذي عليها وتجعلها إماماً لك في هذا المقصود .

قال الله تعالى « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً . قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال إلا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت إمرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم » .

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم . وإنما إمرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك .

فأسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم . وكيف جمعت الضيافة وحقوقها . وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة . وكيف تضمنت علماً عظيماً من أعلام النبوة وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلى العلم والحكمة .

وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بإلطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه . وكيف تضمنت الأخبار عن عدل الرب وإنتقامه من

الأمم المكذبة وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر . وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها . وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات .

فأسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة :

قال الله سبحانه وتعالى « هل اتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » إفتتح سبحانه هذه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام . وليس المراد بها حقيقة الاستفهام . ولهذا قال بعض الناس : إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد) التي تقتضي التحقيق . ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنى بديع . فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له . صدّر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به فتارة يصدره : بألا ، وتارة يصدره : بهل .

فيقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إمامذكراًله وإما واعظاً له مخوفاً . وإما منبها على عظمة ما يخبر به وإما مقرراً له .

فقوله تعالى « هل أتاك حديث موسى » و « هل أتاك نبأ الخصم » و « هل أتاك حديث الفاشية » و « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» . متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته . ففيه أمر آخر . وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة . فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك . فهل أتاك من غير علمنا وإرسالنا وتعريفنا . أم لم يأتك إلا من قبلنا .

فأنظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام . وتأمل عظم موقعه من جميع موارده ليشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا .

وقوله « ضيف إبراهيم المكرمين » متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في « المكرمين » قولين :

أحدهما : إكرام إبراهيم لهما ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف .

والثاني : أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى « بل عباد مكرمون » وهو متضمن أيضا لتعظيم خليله ومدحه . إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له . فعلى كلا التقديرين فيه مدح لابراهيم .

وقوله « فقالوا سلاماً قال سلام » متضمن بمدح آخر لابراهيم حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به . فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره : سلمنا عليك سلاماً . وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة إسمية تقديره : سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم . ولا ريب أن الجملة الأسمية تقتضي الثبوت واللزوم والفعلية تقتضي التجدد والحدوث . فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن ثم قال « قوم منكرون » وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح :

أحدهما : أنه حذف المبتدأ والتقدير : أنتم قوم منكرون فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش وكان ﷺ لا يواجه أحداً بما يكرهه بل يقول « ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا » .

الثاني : قوله « قوم منكرون » فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر « نكرهم » ولا ريب أن قوله « منكرون » ألطف من أن يقول أنكرتكم .

وقوله « فراغ إلى أهله » والروغان الذهاب بسرعة وإختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف ، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء . وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه ثم يبرز بمرأى منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ ويتناول الإناء بمرأى منه ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه ، فلفظة « راغ » تنفي هذين الأمرين .

وفي قوله تعالى « إلى أهله » مدح آخر لما فيه من الاشعار أن كرامة الضيف معدة خاصلة عند أهله وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلى غير أهله إذ قرى الضيف حاصل عندهم .

وقوله تعالى « فجاء بعجل سمين » يتضمن ثلاثة أنواع من المدح :

أحدها : خدمة ضيفه بنفسه . فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه .

الثاني : أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه . ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا .

الثالث : أنه سمين ليس بمهزول . وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين فإنهم يعجبون به . فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره .

وقوله « إليهم » متضمن المدح وآداباً أخرى وهو إحضار الطعام إلى بين يدي الضيف بخلاف من يهيء الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله « ألا تأكلون » ؟ فيه مدح وآداب آخر فإنه عرض عليهم الأكل بقوله « ألا تأكلون » وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم في الطعام ، كلوا ، تقدموا ، ونحو هذا وقوله تعالى «فأوجس » منهم خيفة » لأنهلمارآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر . فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل إطمأن إليه

وأنس به ، فلما علموا منه ذلك « قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل . لأن إمرأته عجبت من ذلك فقالت : عجوز عقيم لا يولد لمثلي فأنى لى الولد ؟

وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده . وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى « فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . وهذه هى القصة نفسها وقوله تعالى « فأقبلت إمرأته في صرة فصكت وجهها » .

فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها . إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار .

وقوله تعالى « عجوز عقيم » فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال وإقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة ، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم . وإقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة ولم تذكر غيره . وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب .

وقوله تعالى « قالوا كذلك قال ربك » متضمن لإثبات صفة القول له وقوله تعالى « إنه هو الحكيم العليم » متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر ، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته . وكذلك أمره وسرغه مصدره عن علمه وحكمته .

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال . فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام .

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والجود والبر . ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها ويتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب .

كل هذا العلم من إسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة . والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثاً وسدى وباطلا فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب . ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته .

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك . وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه .

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها . كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق من الله كتبت في ذلك سفراً كبيراً لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف. وحسن البيان والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر ويكثر معه اليقين . بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل .

والمقصود أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته وإختصت هذه القصة بذكر هذين الإسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة . وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد.وكون الحكمة إقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة.

فذكر في الآية إسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة .

ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط وإرسال الحجارة المسومة عليهم ، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم . وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبرو به عن ربهم .

ثم قال تعالى « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » .

ففرق بين الاسلام والإيمان هنا لسر أقتضاه الكلام . فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة . فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً قوله تعالى « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » .

لما كان الموجودون من المخرجين أوقع إسم الإسلام عليهم لأن إمرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهى مسلمة في الظاهر فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين .

وقد أخبر سبحانه عن خيانة إمرأة لوط . وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم . وليست خيانة فاحشة . فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً . وليست من المؤمنين الناجين .

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه وموضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد .

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور : وهو أن الاسلام أعم من الايمان فكيف استثناء الأعم من الأخص ، وقاعدة الاستثناء تقتضى العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود ، والمؤمنين غير مستثنين منه بل هم المخرجون الناجون .

وقوله تعالى « وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى أثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى كما قال تعالى في موضع آخر « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » وقال تعالى « سيذكر من يخشى » .

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول : هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة .

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن وإستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

(فصل)

والمقصود أن القلب لما تحول لهذا السفر طلب رفيقاً يأنس به في السفر فلا يجد إلا معارضاً مناقضاً . أو لائما بالتأنيب مصرماً أو فارغاً من هذه الحركة معرضاً . وليت كل ما ترى هكذا فلقد أحسن إليك من خلاّك وطريقك ولم يطرح شره عليك كما قال القائل :

إنا لفي زمن ترك القبيح به ★ من أكثر الناس إحسان وإجمال

فإذا كان هذا المعروف من الناس فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة على هذا السفر بالاعراض وترك اللائمة والاعتراض إلا ما عسى أن يقع نادراً فيكون غنيمة باردة لا قيمة لها . ولا ينبغي أن لا يتوقف العبد في سيره على هذه الغنيمة بل يسير ولو وحيداً غريباً فانفراد العبد في طريق طلبه دليل على صدق المحبة .

ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الورقات علم أنها من أهم ما يحصل به التعاون على البر والتقوى وسفر الهجرة إلى الله ورسوله . وهو الذي قصد سطرها بكتابتها وجعلها هديته المعجلة السابقة إلى أصحابه ورفقائه في طلب العلم ويشهد الله وكفى بالله شهيداً . ولو توافى أحداً منهم لتابلها بالقبول ولبادر إلى تفهمها وعدها من أفضل ما أهدى صاحب إلى صاحبه . فإن غير هذا من جريان الركب الخيرية وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة وهي في غاية الرخص لكثرة جالبها وإنما الهدية النافعة كلمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم .

ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء فإنه يبلغ بمرافقيهم إلى مقصده وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات فإنهم يقطعون عليه طريقه فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة . وأوفق له من هذه المفارقة ، فقد قال بعض السلف : شتان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بخالطتهم .

فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه فنظره قاصر ، وهمته واقفة عند التشبه بهم . ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخله معهم .

فمتى صرف همته عن صحبتهم إلى صحبة من أشباحهم مفقودة ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم موجودة استحدث بذلك همة أخرى وعملاً آخر وصار بين الناس غريبا . وإن كان فيهم مشهوراً ونسيباً ولكنه غريب محبوب يرى ما الناس فيه ولا يرون ما هو عليه يقيم لهم المعاذير ما إستطاع ويحضهم بجهده وطاقته سائراً فيهم بعينين :

عين ناظرة إلى الأمر والنهي . بها يأمرهم وينهاهم ويواليهم ويعاديهم ويؤدي لهم الحقوق ويستوفيها عليهم .

وعين ناظرة إلى القضاء والقدر . بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم . ويلتمس وجوه المعاذير فيما لا يخل بأمر ولا يعود بنقض شرع . وقد وسعهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته واقفا عند قوله تعالى «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» متدبراً لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم فهذا ما منهم إليه .

وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه وهو ما أمر الله به . وأما ما يلتقى به أذى جاهلهم فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها .

فأي كمال للعبد وراء هذا ؟ وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة ؟

فلو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم . أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزلفى من الله . وجد سببه الاخلال بهذه الثلاث

أو بعضها . وإلا فمع القيام بها فكل ما يحصل له من الناس فهو خير له وإن كان شراً في الظاهر ، فإنه يتولد من الأمر بالمعروف . ولا يتولد منه إلا خيراً. وإن ورد في حالة شر وأذى . كما قال الله تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » .

وقال تعالى لنبيه ﷺ « فأعف عنهم وأستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » .

وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله تعالى وحق الخلق فإنهم إما يسيئوا في حق الله وحق رسوله . فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم . وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم فإن ذلك أحرى في إستجلاب طاعتهم وبذل النصيحة . فإذا عزمت فلا إستشارة بعد ذلك بل توكل وأمضي لما عزمت عليه من أمرك . فإن الله يحب المتوكلين .

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدب الله بها رسوله ﷺ قال تعالى فيه «وإنك لعلى خلق عظيم» قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن . وهذا لا يتم إلا بثلاثة أشياء :

أحدها : أن يكون العود طيباً . فأما إن كانت الطبيعة جافية غليظة يابسة عسر عليها مزاولة ذلك علماً وإرادة وعملًا . بخلاف الطبيعة المنقادة اللينة السلسة القياد فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر .

الثاني : أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوى . فإن هذه الأمور تنافي الكمال .فإن لم تقوى النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة .

الثالث : علم شاف بحقائق الأشياء وتنزيلها منازلها يميز بين الشحم والورم . والزجاجة والجوهرة .

فإذا إجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث وساعد التوفيق فهو من القسم الذي سبقت لهم من ربهم الحسنى . وتمت لهم العناية والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أبداً إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين ،،،

(تمت هذه الرساله النافعة بحمد الله ومَنّه)

* * *

مطابع الخالد للوفست
EL-KHALED OFFSET PRINTING PRESS
ص.ب ٣٠١٨ الرياض ١١٤٧١ - تلفون ٤٧٩٣٥٦٩/٤٧٩١٠٩٦
P.O.Box3018 Riyadh11471 - Tel.4793569/4791096